طريق الهجرتين والعقد الالهى

هجرة إلى الله وهجرة إلى الرسول . فقد قال تعالى فى كتابه العزيز : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله . »

ألّف الإمام ابن القيم الجوزية المتوفى عام ٧٥١ هـ فى هذا المعنى كتابا جعل عنوانه « طريق الهجرتين وباب السعادتين » بيّن فيه أن للعبد فى كل وقت هجرتين ، هجرة إلى الله بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء والإقبال عليه ، والافتقار فى كل نفس إليه . وهجرة إلى رسوله فى حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة بحيث تكون موافقة لشرعه .

ولابن القيم كتب أخرى كثيرة، غير أن هذا أفضلها ؛ لأنه يصور رأيه فيما يجب أن يكون عليه سلوك الإنسان فى هذه الدنيا ، وفى صلة المخلوق بالخالق ، من الفقر إليه والغنى به ، وفى الخير والشر وكيف يكون الخير من الله والشر من أنفسنا ، وفى القضاء والقدر ، وفى نفاة التعليل والحكمة والأسباب ، وفى الإرادة الإنسانية والمحبة .

وهذه كلها مسائل دقيقة خطيرة شغلت بال المسلمين منذ فجر الإسلام ، وهى شاغلة لأفكار المؤمنين بوجود الله من أصحاب الأديان ، بل هى شاغلة لأذهان الكفار والمشركين مادام المجتمع الإنسانى فيه الخير والشر والعدل والظلم .

ولقد حاول الفلاسفة والمتكلمون والصوفية حل هذه المشكلات كل فرقة حسب منهجها ومذهبها ، فاختلفوا فى ذلك اختلافا كبيراً . وخُيّل إلى أصحاب هذه المذاهب أنهم ملكوا عنان البيان ، واختصوا بالمنطق والبرهان ، فسموا أنفسهم الخاصة وسائر أفراد المسلمين دهماء وعوام ، وأطلقوا على الجمهور أهل السنة ، والإسلام الصحيح لايعرف خاصة وعامة ، أو أرستقراطية فكرية واجتماعية .

وتصدّى من أهل السنة فى كل عصر رجال يجادلون الفلاسفة والمتكلمين

والصوفية ، ولكن أبرزهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية ، ومثلهما فى تاريخ الإسلام مثل سقراط وتلميذه أفلاطون فى تاريخ الفلسفة ، كلاهما لاينفصل عن صاحبه .

أول مسألة يحسن تقريرها فى هذا الصدد علة احتياج العالم إلى الله . وقد بادر ابن القيم بعد خطبة الكتاب بنفى مقالة الفلاسفة والمتكلمين وإثبات دليل آخر غير دليليهما ، فقال : ولهذا كان الصواب فى مسألة علة احتياج العالم إلى الرب سبحانه غير القولين اللذين تذكرها الفلاسفة والمتكلمون ؛ فإن الفلاسفة قالوا : علة الحاجة الإمكان ، والمتكلمون قالوا : علة الحاجة الحدوث . والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان ، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار . وفقر العالم إلى الله تعالى أمر ذاتى لا يعلل ، فهو فقير بذاته إلى ربه الغنى بذاته .

ثم مضى بعد ذلك فلم يتعرض للفلاسفة والمتكلمين الذين عُنى بالرد عليهم فى بعض كتبه الأخرى . ولكنه اهتم بالصوفية ؛ إذ أن مذهبهم يرمى إلى الوصول بل الاتصال بالله ، وهو أليق المذاهب بالهجرة إليه ، واصطلاحاتهم فى ذلك تنم عليهم ، فهم يصفون المتصوف بالسالك والمسافر والسائر ، إلى آخر هذه النعوت المميزة لأرباب السلوك وأصحاب الطريق .

والصوفية أصناف ، منهم المعتدلون ومنهم المتطرفون ، ولهم رموز واصطلاحات لايفهمها إلا المريدون . ولقد رثى ابن القيم للصوفى الذى يحمله التصوف إلى ولوج باب الحلول ، فيقول : «سبحانى أو ما فى الجبة إلا الله . ونحو هذا من الشطحات التى نهايتها أن يغفر له ، ويعذر لسكره ، وعدم تمييزه فى تلك الحال . » والحلاج هو المقصود من هذا القول : ما فى الجبة إلا الله .

يطعن ابن القيم التصوف فى الصميم ، ويبطل غاياتهم ، كالقول بالحلول والاتحاد والفناء ، ويسفه طريقهم ، ويناقش أئمتهم البارزين . أورد رأيهم فى الفقر وهو باب السعادة وبداية الطريق . قال أبو المظفر الفريسى : الفقير هو الذى لايكون له إلى الله حاجة . وعقب القشيرى على هذا القول بأن صاحبه يشير إلى سقوط المطالبات ، وانتفاء الاختيارات ، والرضا بما يجريه الحق سبحانه . واعترض ابن القيم عليهما فقال : « إنه كلام مستدرك خطأ ؛ فإن حاجات العبد إلى الله بعدد الأنفاس . . . وأما أن يقال لا حاجة له إلى الله فشطح قبيح . »

الواقع أن مرد الخلاف بين أهل السنة والصوفية فى طريقة التفكير . المتصوفة يحكّمون الذوق ، ويدركون الأشياء بعين القلب لا بنور العقل . وأهل السنة يجعلون الشرع قبلتهم ، ويتبعون الكتاب والسنة ، وينفذون إلى الحقائق « بالعقل الصريح والفطرة الكاملة » . ولابن تيمية كتاب اسمه « موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح » رد فيه على مزاعم الطاعنين فى أهل السنة . وقال ابن القيم : إن تحكيم الصوفية مجرد الذوق ، وجعل حكم ذلك الذوق كليًّا عاما ، فهذا ونحوه من مثارات الغلط .

ونحن نوافق أهل السنّة فى هذا الرأى الذى يجمع بين النقل والعقل ويوفق بينهما ، ويجعل المعول على العقل فى تفسير النصوص والنظر إلى الأمور . والرجوع إلى العقل الصريح هو أول لبنة فى بناء مذهب ديكارت من الفلاسفة المحدثين ، وهو القائل : « العقل الصريح le bon sens هو أكثر الأشياء قسمة بين الناس بالتساوى . »

أما الذوق وهو طريق الصوفية فهو منهج لا يتفق مع طبيعة الحياة ، ولا يفسر كل شىء ، ولا يتفق عليه جميع الناس ، ولا تقبله جميع العقول .

ولقد حكى أبو حامد الغزالى عن نفسه أنه طاف بجميع المذاهب فلم يجد بغيته أو شفت غُلّته ، فانتهى إلى التصوف الذى عدّه أفضل المذاهب وأليقها بالاتباع . واستطارت شهرة الغزالى ، ولقب بحجة الإسلام ، واتبعه كثير من الناس ، فكان الاقتداء به علة فى تأخر المسلمين ، كما سبق أن ذكرنا من قبل فى مقالنا عن « قضية العلم بين الغزالى وابن رشد » . واعترض علينا الأستاذ العقاد فى مجلة « الكتاب » مدافعاً عن الغزالى ، ولكننا حين ذكرنا أنه إحدى علل تأخر المسلمين لم نكن نقصد إلى رأيه فى العلم فقط ، بل لأنه اتخذ التصوف مذهباً ، فجعل الجمهور يُقبل على التصوف ، ويتخذ الذوق لا العقل عماده ، وينصرف عن الدنيا ويزهد فيها .

قال ابن القيم يعترض على الصوفية : ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك ، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك . وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذى يضرب بزهده المثل .

وقال الصوفية بالتوكل ورفضوا الأسباب ، فأجابهم ابن القيم : فهذا كما أنه ممتنع عقلا وحسًّا فهو محرم شرعاً ودينا ؛ فإن رفض الأسباب بالكلية انسلاخ

من العقل والدين ، وإن أريد به رفض الوقوف معها ، والوثوق بها ، فهذا حق ، ولكن النقص لايكون فى السبب ولا فى القيام به ، وإنما يكون فى الإعراض عن المسبب تعالى . فمنع الأسباب أن تكون أسباباً قدح فى العقل والشرع . وإثباتها والوقوف معها وقطع النظر عن مسببها قدح فى التوحيد والتوكل . والقيام بها وتنزيلها منازلها ، والنظر إلى مسببها ، وتعلق القيام به جمع بين الأمر والتوحيد ، وبين الشرع والقدر ، وهو الكمال . والله أعلم .

إذا كان الله هو الخالق المبدع ، وهو العليم القدير ، وهو الفعال لما يريد ، فلماذا يعاقب الناس على أفعالهم ؟ وإذ قلنا الإنسان حر فاين إرادة الله ؟

هذه هى المشكلة الكبرى : القضاء والقدر ، وحرية الإرادة . وكيف يمكن التوفيق بين القضاء والقدر ، وبين الأمر والوعد والوعيد ؟

تحيزت بعض الفرق للقدر وحاربت الشرع ، وتحيز بعضها الآخر إلى الشرع وكذب القدر . والطائفتان فى نظر ابن القيم ضالتان .

وآمنت فرقة ثالثة بالقضاء والقدر وأقرت بالأمر والنهى ، ولكنهم جعلوا مشيئة الله وقضاءه دليلا على رضاه به ومحبته له ؛ إذ لو كرهه وأبغضه لحال بينهم وبينه . وقال بعضهم إن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضى بها .

وهذه كلها أقوال مشهورة ؛ فالمعتزلة ينسبون الحرية للإنسان وبهذا يصح عندهم الوعد والوعيد . والجبرية يثبتون القضاء والقدر ويعطلون حرية الفرد . وجاء الأشاعرة فقالوا بنظرية الكسب الأشعرى التى أصبح يضرب بها المثل فى الدقة والخفاء ، حتى ليقال أخفى من كسب الأشعرى . وخلاصتها أن أفعال العباد مخلوقة لله مكسوبة لهم ، فجمعوا بين الإرادتين .

أهل السنة يختلفون عن هؤلاء جميعاً ، وهم غير الأشاعرة . فإن قلتَ إن ابن تيمية وتلميذه ابن القيم من الحنابلة ، فلا تنافى بين الحنابلة وأهل السنة . أليس الإمام أحمد بن حنبل هو الذى ضرب حتى خُلعت كتفه فى محنة خلق القرآن ، ورفض الجواب وقال : القرآن كلام الله لا أقول مخلوقاً أو غير مخلوق .

ورأى ابن القيم فى القضاء والقدر يتلخص فى شيئين : أن هناك حكمة إلهية فى كل ما خلقه الله وأمر به ، وأن الخير من الله والشر من العباد .

الحكمة من صفات الله والحكيم من أسمائه الحسنى . ومن حكمته أنه خلق

هذا العالم مركباً من أضداد ، كالليل والنهار ، والبرد والحر ، والداء والدواء . وخلق الإنسان منه الطيب ومنه الخبيث .

فإن قيل : لم خلق الله الأضداد، وهلا جعلها كلها سبباً واحداً ؟

قال ابن القيم : وهل تمام الحكمة وكمال القدرة إلا بخلق المتضادات والمختلفات وترتيب آثارها عليها ، وإيصال مايليق بكل منها .

وسأل ابن القيم أستاذه ابن تيمية : فقد كان من الممكن خلق هذه الأمور مجردة من المفاسد مشتملة على المصلحة الخالصة . قال ابن تيمية : خلق هذه الطبيعة بدون لوازمها ممتنع ، ولو خلقت على غير هذا الوجه لكانت غير هذه ، ولكان عالماً آخر غير هذا .

أما حقيقة نفس الإنسان فإنها جاهلة ظالمة فقيرة محتاجة ، فما حصل لها من كمال وخير فمن الله ، وما حصل لها من عجز وفقر وجهل يوجب الظلم والشر فهو منها ومن حقيقتها . فإن قيل لم لاتكون النفس خيّرة ، كان هذا بمنزلة أن يقال : هلا تجرد الغيث عما يحصل به من تغريق وتخريب وأذى ، وهلا تجردت الشمس عما يحصل منها من حر وسموم ؟

كمال القدرة بخلق الأضداد ، وكمال الحكمة تنزيلها منازلها ، والعالم هو الذى يربط القدرة بالحكمة، ويعلم شمولها لجميع ما خلقه الله ويخلقه .

الجديد فى مذهب ابن القيم مذهب المحبة ، بها يفسر جميع المشكلات السابقة . فقد خلق الله العالم، وأحب من خلقه عبادته فقال، : «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» . قال ابن القيم : فأخبر سبحانه أن الغاية المطلوبة من خلقه هى عبادته التى أصلها كمال محبته . وهو سبحانه ، كما أنه يحب أن يعبد ، يحب أن يحمد ، ويثنى عليه ، ويذكر بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى .

فالله سبحانه يحب نفسه أعظم محبة ، ويحب من يحبه ، وخلق خلقه لذلك ، وشرع شرائعه وأنزل كتبه لأجل ذلك .

ويذهب ابن القيم إلى أبعد من هذا : فهناك عقد إلهى بين الله وعباده ثمنه الجنة . وفى ذلك يقول : فالله سبحانه خلق عباده له ، ولهذا اشترى منهم أنفسهم ، وهذا عقد لم يعقده مع خلق غيرهم . وهذا الشراء دليل على أنها محبوبة له ، مصطفاة عنده ، مرضية لديه . فالسلعة أنت ، والله المشترى ، والثمن الجنة .

ومحبة الله من أقوى الأسباب فى الصبر عن مخالفته ومعصيته : فإن المحب لمن يحب مطيع . وكلما قوى سلطان المحبة فى القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى . وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها .

وإذا اقترنت المحبة بالإجلال والتعظيم أدت إلى الانقياد .

والمحبة أنواع : طبيعية مشتركة كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء . ومحبة رحمة وإشفاق كمحبة الوالد لولده الطفل . ومحبة أنس وإلف وهى محبة المشتركين فى صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة . وهذه الأنواع كلها لا تستلزم التعظيم ، ولا يتعارض وجودها فى الإنسان مع محبة الله . ولهذا كان رسول الله يحب الحلواء والعسل ، وكان يحب نساءه ، وكانت عائشة أحبهن إليه ، وكان يحب أصحابه ؛ وأحبهم إليه الصديق .

اما المحبة التى لاتصلح إلا لله فهى محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم . قال تعالى : « والذين آمنوا أشد حباً لله » .

والمحبة تقتضى إيثار المحبوب على غيره . والإيثار نوعان : إيثار معاوضة ومتاجرة ، وإيثار حب وإرادة . والمحبة الصادقة فى الإيثار الصادر عن الإرادة ، لا فى إيثار المعاوضة وطلب الحظوظ .

ولا محبة بغير إرادة ، فهى أساس العبودية الذى لاتقوم إلا عليه ، فلا عبودية لمن لا إرادة له .

أما التجرد عن الإرادة إطاعة لهوى المحبوب ، فهو عند ابن القيم باطل كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

والتحقيق عنده أن المحبة هى موافقة المحبوب فى إرادته ، بأن يبقى مراده مراد محبوبه . وهذا عند الصوفية نقص فى العبودية ، وهو عند ابن القيم من كمال الإسلام .

وعلى هذا النحو يحل ابن القيم مشكلة التوفيق بين الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية ، لا بطريق الفلاسفة أو المعتزلة أو الاشاعرة أو الصوفية ، بل بطريق المحبة .